العلم والوطنية

الى الأستاذ توفيق الحكيم

من الأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

مدير دار الآثار ببغداد

قرأت الكلمة الرشيقة التي دبجتها يراعتكم الفنانة ، في صدد الرد على استفتاء الرابطة العربية حول مسألة « العلم للعلم أم العلم للوطنية ؟ »

قرأتها بامعان واهتمام ، وأعجبت بالأخيلة والتشبيهات التي تحلت بها ؛ غير أني لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التي تضمنتها

لقد ختمتم بصيغة التأكيد الحاسم : « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا ... »

إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان ؛ وزيادة على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ، كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الاستاذ لأنه خلاف المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لانهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل ، فانما يكون ذلك كالذهب الذي يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لاشك فيه ، وانما يكون النبوغ نبوغا ولا يكون شيئا آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم ، لأنه ملكة في الطباع لا يختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس اليها ، ولا تزال الانسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الاستاذ الكبير إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه ان المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث ، لان ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التي يخلق بها النابغون الممتازون

عباس محمود العقاد

ولن يزول في يوم من الأيام ...

على أني أعترف أيها الأستاذ بأنني من الذين يدينون بدين العلم والوطنية في وقت واحد ، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب « نشر الروح العلمي » من جهة ، و« تقوية الشعور الوطني » من جهة أخرى

أفلا تعذروني إذن إذا ما اعتبرت نظريتكم هذه من الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتقي مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لاظهار الحقيقة التي أعتقدها ؟

* * *

تقولون ، أيها الأستاذ ، بأن « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا » وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا :

« إن الوطنية هي الأنانية في المجموع »

« والأنانية عمياء »

« والعلم هو البصر ـ المنزه ـ بحقيقة الأشياء ... »

إنني لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا ؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأرى هل تكفي للدلالة على صحة رأيكم في هذا الصدد ...

تقولون : « إن الوطنية هي الأنانية في المجموع » فهل تستطيعون أن تقولوا ـ في الوقت نفسه ـ بأن العلم ينكر الأنانية على الاطلاق ، ولا يعترف بأثرها في حياة الحيوان والانسان ؟

تقولون : « إن الأنانية عمياء » فهل تستطيعون أن تقولوا ـ في الوقت نفسه ـ إن العلم يخالف كل ما هو أعمى ؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟

تقولون: « إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء » فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية « خارجة عن حقائق الأشياء » ؟ ...

كلا .. إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة ، ليس إلى إنكارها من سبيل ... آثارها تظهر دائما ، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجلاء فهي تدخل لذلك في نطاق « حقائق الأشياء » ، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية ...

فاذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث علمي ، يجب

أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام ، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص ...

ولا جدال فى أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون « بحياد تام » . يدرس حواص الأشياء ، ويتتبع سير الحادثات ويتحرى أسبابها ، ويستقصى قوانينها ؛ وقد يتنبأ فى بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً ، استنادا إلى القوانين التى اكتشفها والعوامل التى أظهرها ... إنه يفعل كل ذلك ، دون أن يقدم على استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، دون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور . لأن مهمة العلم تنحصر فى معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا يتعدى . ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون ، ولنا أن نتصور « مجتمعاً غير هذا المجتمع ، ولنا ألا نكتفى بالتخيل والتصور بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر إلى درجة التمنى ، فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التى تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع إلى الهيأة التى تصورناها . . ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً : لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه فى هذا الباب مثلا أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس ، وهدفاً أسمى نتجه نحوه بقوة واندفاع ... لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم فى الوقت نفسه . بأن تفكيرنا وعملنا فى هذا السبيل يكون من قبيل الشعر أو الفلسفة أو السياسة ... فلا يدخل فى نطاق « البحث العلمى » بوجه من الوجوه . .

لكم ، أيها الأستاذ ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم ؛ ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة ، ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمى إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة إلى مصلحة سائر الدول . . فانى لا أناقشكم فى كل ذلك فى هذا المقام ؛ غير أنى أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى « العلم » فتقولوا « العلم لا يتفق مع الوطنية »

فان العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع . . وإننا مهما تعمقنا فى تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه .

* * *

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك هذه « الأحكام الآنية » جانباً ، لنستقرىء الوقائع التاريخية فننظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلا فى مختلف الأجيال ...

إننى أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على « اتفاق العلم مع الوطنية » و « خدمة العلم للوطنية » بصورة فعلية ، لعل أقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد « أرخميديس » الشهير ، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان . فان هذا العالم الكبير الذى يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذى يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية فى دروس الطبيعة والأشياء ، هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً فى تاريخ وطنه سيراقسة ، فعند ما حاصرها الرومان . وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع إلى خدمة وطنه . فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين ، فكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال . إذن ، فالعلم والوطنية اتفقا فى نفسية أرخميديس فى أمر الدفاع عن الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه

ان الثورة الفرنسية أيضا تعطى لنا مثالا بارزاً « لتعاون العلم والوطنية » : عند ما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة فى مهدها ، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى ، كادت تقضى عليها لولا مساعدة العلم والعلماء لها ، فان الحصار الذى أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات ، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة ، عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبى فى الاستفادة من علماء الكيمياء ، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من هذه المحنة .

ومن هؤلاء العلماء « برتوله » و « فوركروا » وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية ، نحو إيجاد الطرق التي تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد ، فنجحوا في مسعاهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات .

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول : إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التي يصعب احصاؤها فإن صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأمثلة دالة على ذلك ، ولاسيما ما حدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون أيها الاستاذ ، « إن هذه كلها من الأمور التطبيقية » وستكررون في هذا المقام رأيكم في « العلم وتطبيق العلم » لأنكم قلتم في كلمتكم « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من وراثها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة »

فاسمحوا لي أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية في أمر « العلوم وتطبيقاتها » فإن استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائما من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد في تاريخ العلوم أن العالم الباحث ، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير في النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا — في هذه الحالة — أن نخرجه من عداد « العلماء » بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير في الاستفادة منها ؟ فهل يحق لنا مثلا ألا نعتبر أرخميدس من « العلماء الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التي اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء — بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين — وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذي تتطلبه منه خدمة الوطن ؟ .

كلا ... إن مبدأ « العلم للعلم » يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها .

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التي ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها .

* * *

هذا واتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب علي أن أشير إلى بعض الحوادث التي تدل على حدوث شيء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية في بعض الأحوال :

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالا بارزاً لذلك : فان رجال الثورة أعدموا « لافوازييه » Lavoisier الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايلي » Bailly الذي اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » Condarcet الذي كان من كبار المفكرين ، فاضطروه إلى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

كما أن الانقلاب الألماني الأخير أعطانا مثالا جديداً لذلك : فان الحكومة الوطنية ، طردت من البلاد عددا غير قليل من العلماء ، وعلى رأسهم « إينشتاين » الشهير ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية ، من حيث الأساس . لأن العالم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ، فانه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيرا ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً ، كما أن تفكيراته لا تكون علمية في كل الموضوعات ، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس في المسائل التي تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما في الأمور التي تدخل في ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فاذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من عليه لا بسبب عليه .

فان « لافوزييه » مثلا كان من النبلاء الذين يحملون لقب « المركيز » كما انه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية - بحق أو بغير حق - بالخيانة للوطن ، وحاكموه فأعدموه ، انما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وكذلك الأمر فى « إينشتاين » : فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الالمانية — بحق أو بغير حق — فى سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

***

وربما كان من المفيد أن نذكر رأى بعض العلماء لإيضاح هذا البحث أكثر مما تقدم . وربما كان رأى « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات فى هذا الباب :

إن هذا العالم الذى يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمى بأكمل معانيه ، والذى قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته ؛ وقد قال فى خطبة بليغة ألقاها فى أحد المؤتمرات الأممية :

« لا وطن للعلم أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه فنى كل عالم حقيق كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً ،

***

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة ، اسمحوا لى أن أعود إلى إحدى القضايا التى كنت سلمت بها جدلا ، وهى أولى القضايا الثلاث التى سقتموها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع »

إنى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس . غير أنى أرى من الضرورى أن نتبعها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع ، غير أنها التضحية والايثار فى الفرد ... »

نعم ان الوطنية هى التضحية والايثار - بالنسبة إلى أفراد البشر ، وإن كانت من قبيل الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرقى أشكال التضحية والايثار . فان مظاهر التضحية والايثار لا تتجلى فى مجال من مجالات أعمال الانسان بالتنوع والسمو والقوة التى تتجلى بها فى مجال الوطنية . وأما مظاهر الايثار التى تنشأ من الشعور الأممى فإنها لا تذكر بجانب ذلك ...

انى لا أود أن أتوسع فى هذه المسألة الآن غير أنى أود أن أختم هذه الرسالة باحدى الكلمات التى قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب :

« بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكى يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين »

(بغداد) أبو خلدون

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس